

عقيل عبد الحسين | Akeel Abdul-Hussein *

مراجعة كتاب: الملاحم والفتن لابن طاووس⁽¹⁾

Book Review: Epics and Seditions by Ibn Tawoos

الكتاب :	الملاحم والفتن.
الكاتب :	علي بن موسى بن جعفر بن طاووس.
مكان النشر :	أصفهان.
الطبعة وتاريخ النشر :	الطبعة الأولى، 1416هـ.
الناشر :	مؤسسة صاحب الأمر.
عدد الصفحات :	392 صفحة.

جذوة المعارضة مشتعلة في نفوس المحكومين من الفئة المُبعدة عن الحكم، أو المقموعة، أو التي تشعر بالظلم التاريخي، كما يتسم بأنه يعتمد على القارئ الذي يؤدي أكثر من وظيفة؛ من بينها وظيفة تداولية تتمثل بتناقل الكتاب في السياق التاريخي، أو الواقعي، والاحتفاظ به، وبما يتضمنه من قيم معارضة للسلطة، ووظيفة تأويلية⁽³⁾ تتصل بملء الثغرات الكثيرة في الأخبار التي تكون من طبيعة «الإخبار» في الملاحم، وهو إخبار منقوص، كما ستبين هذه المراجعة. والقارئ التأويلي، على مستوى الخطاب السرد، هو الفاعل التأويلي الذي يساهم في تركيب الخبر وإنتاجه، فهو مساوٍ للسارد والمؤلف في الأهمية والقيمة والدور.

الملحمة المقتلة العظيمة⁽²⁾، طرفها الخير والشر، ومدارها الزمن المستقبل الذي سيشهد تحولين كبيرين؛ من الإسلام الصافي إلى الكفر، ثم من الكفر إلى الإسلام الصافي، أو بتعبير كتب الملاحم: من العدل إلى الجور، ومن الجور إلى العدل. والملاحم، بهذا المعنى، إسلامية لا علاقة لها بالملاحم السومرية مثل كلكامش، ولا اليونانية كالإلياذة أو الأوديسة، أي إنها محكومة بتصور إسلامي لتبدلات الحياة، وعودتها إلى مُستقر لها، فيما يشبه نهاية التاريخ الذي نعرفه اليوم عند فرانيس فوكوياما، وذلك التصور هو الذي يحكم السرد. وهو تصور يتسم بأنه انتقادي سياسي، ينتقد الحكم القائم ويؤلب عليه، ويبقى

* أستاذ النقد الأدبي بجامعة البصرة، العراق.

وتلقى الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون في الإبل كأنه كلبها، والذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملاً الأرض من الإسلام، ويسلب الكفار ملكهم، ولا يكون ملك إلا الإسلام، وتكون الأرض كفاثور الفضة، وتنبت نباتها كما كانت على عهد آدم، يجتمع النفر على القطف فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة [...] ويكون الفرس بالدرهيمات⁽⁶⁾. والعودة الى حالة التوازن أو العدل التي نلاحظها في الخبر، تكون في سياق تبعية الزمان الرديء للجيد، وسيلها تبعية الجيد للرديء.

- أو تتابعية عواملية تتصل بتتابع العوامل: عامل خَيْر يتلوه شرير ثم يتلوه خَيْر، كما سيتضح.

أخبار الملاحم

يشدد خبر الملاحم على التبعية، مغيباً السببية التي تحتفي بها الأخبار التقليدية، أو السرود التقليدية، فما يرد في الخبر إنما هو عنصر واحد (انحراف على سبيل المثال) من ثلاثة عناصر يتشكل منها أي خبر. ويظل العنصران الآخران مُضْمَنَيْن، يدركهما الفاعل التأويلي الذي يعيد وصل الخبر في سياق السردية الكبرى التي تعمل في ظلها الملاحم وأخبارها. وهي سردية توجه العالم السردى والحقيقي معاً، وتماهي بينهما، وتصل الفاعل التأويلي بالقارئ الحقيقي، والزمان التاريخي بالزمان السردى، مُشكِّلةً الأفق النفسي والعاطفي الذي تعمل الملاحم على إبقائه حياً نابضاً في النفوس إلى ما لا نهاية له من الأزمنة.

وسأكتفي، لتوضيح الكلام السابق، بمثال واحد من أخبار كثيرة يزخر بها كتاب ابن طاووس، ذلك هو ما ورد منسوباً إلى النبي، وفيه: «ملك بني أمية مئة عام، لبني مروان من ذلك نيف وستون عاماً لا يذهب ملكهم حتى ينزعه بأيديهم ثم يريدون

تتكون كتب الملاحم - ومنها كتاب ابن طاووس⁽⁴⁾ - من قسمين هما: الملاحم والفتن. والملاحم هي أخبار الاشتباك مع جماعة الكفر أو الضلالة. وهي تتكون من حركة سردية واحدة؛ إذ من المعروف أن السرد يتشكل، في الأقل، من ثلاث حركات هي: التوازن، واللاتوازن، ثم العودة إلى التوازن. وفي كتاب الملاحم لابن طاووس نجد حركة واحدة هي إما اللاتوازن، أو العودة إلى التوازن، وإذا أردنا أن نترجمها إلى السردية الإسلامية الموجهة لأخبار الملاحم، فإنها حركة الانحراف عن الإسلام، أو العودة إلى الإسلام. والحركة يترتب عليها ملحمة، أو موقعة عظيمة.

أما القسم الثاني من أقسام كتاب ابن طاووس، فهو الفتن؛ وهي أخبار تامة تتكون من حدث تام يبدأ وينتهي. وفيه شخصيات إسلامية من زمن سابق على زمن الملاحم، متصل بزمن الإسلام النقي؛ وظيفتها تأكيد التبعية العميقة التي توجه خبر الملاحم. وتقسم التبعية تلك إلى:

- تتابعية عقديّة تتصل بتتابع وضع عقيدة الإسلام في نفوس الناس من القوة إلى الضعف إلى القوة، كالخبر الذي يصف فيه النبي الإسلام بالقول: إنه سيعود غريباً⁽⁵⁾، لقلّة الملتزمين به، ولضعفه في النفوس.

- أو تتابعية زمانية تتصل بتتابع الأزمنة: زمان العدل، ثم زمان الجور، ثم العودة إلى زمان العدل والسلام، كما في هذا الخبر الذي يصف الزمان الأخير: «قال (النبي): ومع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي، كلهم ذو ساج، وسيف محلى، فإذا نظر إلى عيسى ذاب كما يذوب الرصاص وكما يذوب الملح في الماء ثم يخرج هارباً [...] وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل دابة حتى يدخل الوليد يده في فم الحنش فلا يضره،

خَيْرٍ هو المهدي الذي سيرد في أخبار ملاحم ابن طاووس كثيراً.

يتشكل الخبر، إذًا، من تبعية يدرکہا الفاعل التأويلي هي هنا تبعية عواملية؛ أي أن العامل الشرير يتبع العامل الخير، أي النبي، وسيتبعه عامل خير، هو المهدي، يعيد السرد إلى توازنه والتاريخ الإسلامي إلى نهايته بتمام سرديته المحتممة. وبذا، لا يكون للخبر في ذاته وخارج كتاب الملاحم من معنى، بل هو لا يكون خبرًا، لأنه يتشكل من حركة واحدة، ولأنه يفتقر إلى السببية. وقيمته تأتي من إدراجه في كتاب الملاحم التي تعمل كنسق تأليف على إبدال السببية بالتبعية (العواملية هنا وفي أخبار أخرى عقدية أو زمانية)، وعلى تنشيط المروية الكبرى التاريخية كخلفية للأخبار، وما تحويه من مواقف عقدية، ومن أزمنة، ومن شخصيات.

أخبار الفتن

لتوضيح طبيعة أخبار الفتن ودورها النبوي في كتاب الملاحم، أورد للقارئ الخبر الآتي: «قال شريح القاضي: كنت أقضي لعمر بن الخطاب، فأتاني يوماً رجل، فقال: يا أبا أمية، إن رجلاً أودعني امرأتين؛ إحدهما حرة مهيرة والأخرى سرية، فجعلتهما في دار وأصبحت اليوم وقد ولدتا غلاماً وجارية، وكلتاهما تدعي الغلام وتنتفي من الجارية، فاقض بينهما بقضائك، فلم يحضرنني شيء فيهما، فأتيت عمر فقصصت عليه القصة، فقال: فبم قضيت بينهما؟ قلت: لو كان عندي قضاؤهما ما أتيتك، فجمع عمر جميع من حضره من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وأمرني فقصصت عليهم ما جئت به، وشاورهم فيه، فكلهم رد الرأي إليّ وإليه، فقال عمر: لكن أعرف حيث مفزعها وأين منزعها، قالوا: كأنك أردت ابن أبي طالب، قال: نعم وأين المذهب عنه؟

سده فلا يستطيعونه كلما سدوه من ناحية انهدم من ناحية، يفتتحون بميم ويختمون بميم، ولا يذهب ملكهم حتى يخلع خليفة منهم فيقتل ويقتل حملاه ويلقب حمار الجزيرة الأصهب مروان ثم ينقطع ملكهم وعلى يديه هدم الإكليل»⁽⁷⁾.

والمثال السابق خبر، لأنه يخبر عن حوادث وشخصيات. وسردياً، هو يتشكل من عدد من الأفعال مثل: «لا يذهب، وينزعوه، ويخلع، ويقتل، وينقطع». وترتيب الأفعال يشكل حقبة حكم بني أمية، وما تشهده من تحولات جزئية تنتهي بتحول أكبر هو زوال حكمهم. وشخصيات الخبر هم خلفاء بني أمية الذين لا يُذكرون بالاسم، ما خلا أخيرهم. ولو نزعنا الخبر من كتاب الملاحم لما كان ذا قيمة؛ فهو يطابق الوقائع التاريخية، ويحكي عن فئة حاكمة طواها التاريخ بخيرها وشرها. ولعله أقرب إلى تقرير الحالة منه إلى أي شيء آخر. ولكنه يتضمن في سياق أخبار ملاحم ابن طاووس أكثر من قيمة؛ إذ هو أولاً استباقي بمعنى أنه تنبؤ بما سيقع، ولم يكن قد وقع بعد، لأن الملاحم تفترض أن أخبارها منسوبة إلى النبي، ومن هم في طبقتهم من حيث الموثوقية كالصحابة أو الأئمة وهؤلاء سابقون على زمان وقوع الفتن والملاحم. وهو ثانياً يوجه نقدًا لأسرة حاكمة بعينها، هي بنو أمية، أسرة متورطة تاريخياً بانتزاع الحكم من أهلها، وستتورط سردياً في سياق الملاحم بأنها المسؤولة عما وقع للإسلام من انحراف وتحريف. والخبر ينصب على عامل التخريب الذي يتمثل بخلفاء بني أمية. وعلى الفاعل التأويلي أن يصل الخبر في سياق كتاب الملاحم، وفي سياق تاريخي أكبر منه، ذلك هو أن تحول الإسلام من العدل إلى الجور ثم إلى العدل تم بفعل عاملين؛ أولهما شرير، هو الخليفة الأموي، أو العباسي في أخبار أخرى. وثانيهما

على الرغم من أنه خبر تام، وليس منقوصاً كما في أخبار الملاحم، فإنه يوظف في سياق كتاب الملاحم لتأكيد التبعية العواملية، وصحتها؛ فما تسبب في الانحراف عن الحق والإسلام هو تولية الحكم لغير أهله؛ إذ بتنحية العامل الخير (الإمام عليّ في كتاب ابن طاووس)، حل العامل الشرير، وتسبب ذلك بالخراب.

وثمة أخبار تامة أخرى ترد في باب الفتن من كتاب ابن طاووس، وجميعها تؤكد صحة المروية الكبرى الموجهة لأخبار الكتاب، وترسخها في نفس القارئ الذي يحرص الكتاب على إبقائه طرفاً في الصراع السياسي التاريخي المتواصل بشحنه عاطفياً بما يجعله محباً لطرف من أطراف الصراع، وكارهاً للطرف الآخر متعصباً عليه. وبذلك تحقق أخبار الفتن غايتها؛ وهي جعل القارئ طرفاً من أطراف الفتنة بتذكيره المستمر بالفتنة، وتعديته على ما يفترض أنه طرفها الآخر، وأنه العدو. وتهيئته للملحمة القادمة، لا محالة، بحسب سرديات فئة إسلامية معينة، المحسومة لمصلحة هذه الفئة، ولمن والاهها قرائياً على مستوى السرد، وعاطفياً على مستوى الوجود، وفعلياً على مستوى التاريخ في زمن قادم غير محدد الآن.

خلاصة

تبرهن أخبار الملاحم على صحة السردية الكبرى الإسلامية التي تبناها جماعة ما. وتشدد على دور القارئ - المُسلّم - في إقامة المرويّات على اختلافها نصية أم فكرية، وعلى جعله جزءاً منها بناءً ووجوداً، وتراهن على أهمية ذلك كله في مواجهة السلطة القائمة، ومقاومتها وتغييرها، ولو بعد حين.

قالوا: فابعث إليه يأتيك، فقال: لا، ثم شجّنة من هاشم وأثرة من علم يؤتى لها ولا يأتي، وفي بيته يؤتى الحكم، فقوموا بنا إليه، فأتينا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فوجدناه في حائط له يركل فيه على مسحة ويقراً: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ويكي، فأمهله حتى سكن، ثم استأذنوا عليه، فخرج إليهم وعليه قميص قد نصف أردانه، فقال يا أمير المؤمنين ما الذي جاء بك؟ فقال: أمر عرض، وأمرني، فقصصت عليه القصة، فقال: فبم حكمت فيها؟ قلت: لم يحضرني فيها حكم، فأخذ بيده من الأرض شيئاً، ثم قال: الحكم فيها أهون من هذا. ثم استحضر المرأتين وأحضر قدحاً ثم دفعه إلى إحدهما، فقال: احلبي فيه، فحلبت فيه، ثم وزن القدح ودفعه إلى الأخرى، فقال: احلبي فيه، فحلبت فيه، ثم وزنه، فقال لصاحبة اللبن الخفيف: خذي ابتك ولصاحبة اللبن الثقيل: خذي ابنك. ثم التفت إلى عمر فقال: أما علمت أن الله تعالى حط المرأة عن الرجل، فجعل عقلها وميراثها دون عقله وميراثه، وكذلك لبنها دون لبنه؟ فقال له عمر: لقد أراك الحق يا أبا الحسن، ولكن قومك أبوا، فقال: خفض عليك أبا حفص إن يوم الفصل كان ميقاتاً⁽⁸⁾.

يركز الخبر المطول نسبياً، على شخصية الإمام عليّ، ويظهره: عاملاً، ذاكراً لله، متقشفاً، قاضياً فيما يصعب البت فيه، مؤمناً بالقضاء، مُعترفاً له بالفضل (الخليفة عمر يصفه بمفزعها ومنزعها)، ومُقرراً له بالسلطة. والخبر تام يتكون من بداية هي مشكلة الحكم في نسبة مولودين إلى أميهما الحقيقيتين، وعجز القاضي والخليفة عن حل النزاع، والذهاب إلى الإمام، وحل النزاع. هو خبر تام لا يحتاج إلى فاعل تأويلي، وإنما يكتفي بالسارد الذي ينقل عبره المؤلف الخبر في الكتاب، إلى المسرود له، ومنه إلى القارئ، ولكنه

(2) الملحمة: الواقعة العظيمة القتل، وموضع القتال. وهي القتال في الفتنة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 52 (بيروت: دار صادر، 2014). وهي نوع من التأليف يتضمن أحاديث منسوبة إلى النبي تصف ما سبب إليه حال الإسلام والفتن التي تعتبر مساره، وصولاً إلى عودته إلى بدايته الصحيحة. وفي الأحوال كلها والأزمنة كلها تتولى شخصيات شريفة أو خيرة تحويل مسار التاريخ الإسلامي المتخيل مثل الخلفاء الأمويين والعباسيين، وشخصيات كالدجال، انتهاءً بشخصيات خيرة كالمهدي والمسيح. وتنطوي كتب الملاحم على أخبار كثيرة تشكل عمادها الرئيس. والأخبار تلك ستكون مادة البحث السردية في الملاحم، وتحديداً أخبار كتاب الملاحم والفتن لابن طاووس (ت. 664هـ).

(3) ينطوي السرد العربي القديم على أكثر من فاعل؛ الأول هو النصي المُشخص، الذي يشخص بالاسم كأن يكون عيسى بن هشام في مقامات الهمذاني. والثاني هو المجرد الذي يتولى إدارة الكلام عبر الفاعل النصي المشخص. وهو أقرب إلى المؤلف. والثالث هو التأويلي الذي يُترك له أمر إتمام السرد ووصله بالسياق التاريخي والثقافي الذي يوجد فيه وبمشاغل الأفراد. انظر: جمال بن حمدان، سيمياء الحكيم المركب: البرهان والعرفان (القاهرة: رؤية، 2015). والفاعل التأويلي يقترب من القارئ الحقيقي، وهو يوجد في الكتب السردية ذات الصبغة الأيديولوجية أو المذهبية. انظر: عبد اللطيف محفوظ، صيغ التمثيل الروائي: بحث في الدلالة والأشكال (دمشق: النيا، 2014)، ص 11.

(4) علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، ولد في الحلة وسط العراق سنة 589هـ، من كبار شخصيات الشيعة، له عدد من المؤلفات منها: المهمات والتمتات، ومصباح الزائر وجناح المسافر، وكتاب الملاحم. توفي سنة 664هـ.

(5) ابن طاووس، الملاحم والفتن (أصفهان: مؤسسة صاحب الأمر، 1416هـ)، ص 217.

(6) المرجع نفسه، ص 272-274.

(7) المرجع نفسه، ص 79.

(8) المرجع نفسه، ص 375.

إن من الضروري وضع هذا النوع من السرد، الذي يُظن أنه لا يزال مهماً ومستبعداً، تحت مشروط البحث النقدي لتجريده من صدقيته، فهو في النهاية سرد، شأنه شأن أي سرد آخر، له بنيتة التي تنتسب إلى موقف من العالم، يمثل، هنا، موقفاً سياسياً قابلاً للإدراك والفهم والتحديد. وسيكون من شأن ذلك الفهم التخفيف من سطوة المقدس على النفوس، ومن هيمنة الكلي، سواء أكان أفكاراً أم مرويات كبرى، ومن حضور التاريخ في الحاضر، ومن ثمَّ إحلال النقدي والعقلاني محل النقلي والعاطفي، وصولاً إلى كبح جماح العنف وإحلال الحوار والتعايش محله. إذ إن الاشتغال على السرود المستقوية بالسرديات الكبرى وإبطال مفعولها في النفوس ضروري لفضح غاياتها اللانسانية (العقدية غالباً)، وما تنطوي عليه من عداة سافر وبشع للحياة وللتقدم.

الهوامش

(1) يتضمن كتاب ابن طاووس عددًا من الأخبار حول ظهور المُخلص، وعصر العدل القادم، من منظور طائفة إسلامية بعينها وتشكل الأخبار مادة للمقاومة والمعارضة النفسية للسلطة القائمة. أما المراجعة هذه، فغايتها رصد الطريقة السردية التي تؤدي عبرها أخبار الكتاب غاياتها السياسية، والتنبيه إلى أثر هذه السرود، وأمثالها، في إدامة روح الفرقة والعداء، وترسيخ انتماء أفراد المجموعة التي تخاطبها إلى التاريخ، على حساب الحاضر والمعاصرة.

المراجع

العربية

بن حمدان، جمال. سيمياء الحكيم المركب «البرهان والعرفان». القاهرة: رؤية، 2015.

ابن طاووس، علي بن موسى. الملاحم والفتن. أصفهان: مؤسسة صاحب الأمر، 1416هـ.

محفوظ، عبد اللطيف. صيغ التمثيل الروائي: بحث في الدلالة والأشكال. دمشق: النيا، 2014.

ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب. ط 3. بيروت: دار صادر، 1414هـ.

References



خوليان كازانوفّا

الحرب الأهلية الإسبانية

ترجمة: عمر التّل

في هذا الكتاب، يشرح المؤلف - وهو واحد من أشهر المؤرخين المتخصصين في دراسة الحرب الأهلية الإسبانية - الجذور الداخلية العميقة للحرب الإسبانية، ويضعها أيضاً في سياقها الأوروبي الذي تميز بالتغيير القارّي المتشنج والممتد من الحرب العالمية الأولى ولغاية الحرب العالمية الثانية. كما يوضح الكاتب كيف خلّفت "حرب الأيام الألف" ندوباً طويلة الأمد وعميقة الغور في المجتمع الإسباني. ولا يسع المراقب، بعد ما يقرب من سبعة عقود على اندلاع ذلك الاحتراب في إسبانيا، إلا أن يستحضر جانباً من أوجه الشبه بين نتائجه الفاجعة وما تشهده مجتمعات وكيانات سياسية أخرى في العالم في الآونة الأخيرة.

ومن المؤمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة إلى المكتبة العربية، ومرجعاً قيماً للقراء والباحثين في ميدان الدراسات الاجتماعية والسياسية والتاريخية.